

شخصيات روائية
بصفات إنسانية

كثيرا من الأعمال الروائية حاولت أن تزيل الحدود بين هذين النوعين من الرواية من خلال انتقال السرد الروائي مع الشخصية من الواقع إلى تمثلاته النفسية عند هذه الشخصية كما يظهر ذلك في استخدام المنولوج والتداعيات عندها.

لقد ظل السرد في رواية ثلاثية نجيب محفوظ ينتقل بين صورة الواقع الخارجي والعالم الداخلي لشخصيات هذه الرواية. ولا يختلف الحال في رواية الجريمة والعقاب التي جعلت شخصية البطل تنوء تحت احتدام أفكارها وصراع موقفها من الواقع الاجتماعي الضاغط عليها بقوة. إن هذه القيمة الدلالية الخاصة للشخصية لا تنبع من بنيتها الدرامية المركبة وحدها بل من مجمل أدوارها التي تلعبها في تصاعد الخط الدرامي للبنية السردية في الرواية وعلاقتها بالواقع وبالشخصيات الفرعية الأخرى في إطار اللعبة السردية للرواية والأفكار والقيم التي تعمل على تمثيلها في هذه اللعبة.

إن أهمية بناء الشخصية الروائية لا يمكن عزلها عن القيمة الفنية للبناء السردية لأحداث الرواية وما ينطوي عليه من توتر ودلالة تكسب هذا العمل قيمته النابعة من الأفكار والقضايا الوجودية والسياسية والاجتماعية الخاصة، التي تحملها وتختزل معناها في سلوكها ومواقفها وجدلها مع ذاتها ومع العالم الذي تشتبك معه. إن الشخصية الروائية بوصفها الحامل الأساس للعمل الروائي تمثل البؤرة التي تنطلق منها أحداث الرواية وتظل مرتبطة إليها في صعودها وهبوطها، الأمر الذي يجعل مركزية حضورها تجلبي في أفعالها ومواقفها التي تشكل العصب الذي يبدئ إليه بنيتها العمل الروائي، ويحكم في مساراته وحمولاته الدلالية في سياق البنية الكلية للرواية وما تحاول أن تقول أو تعبر عنه خاصة بالنسبة للقضايا الأكثر تأثيرا على المستوى الوجودي والسياسي والاجتماعي.

أهمية بناء الشخصية الروائية
لا تعزل عن القيمة الفنية للبناء
السردية لأحداث الرواية وما
ينطوي عليه من توتر

إن أهمية زوربا تكمن في شخصية بطلها زوربا ولذلك جعل الكاتب من اسم هذه الشخصية الأيقونية العلامة الدالة عليها عندما جعل منها العنوان الرئيس للرواية. ولا يختلف الحال مع رواية أنا كارنينا لتولستوي نظرا لمحورية الدور الذي تلعبه هذه الشخصية والقيمة الدلالية التي تنطوي عليها كما تجلبي في قصة الحب التراجيدية التي عاشتها. لذلك فإن أهمية هذه الشخصيات الأيقونية تنبع من المواقف والقيم والأفكار التي تمثلها في علاقتها مع الواقع ومع ذاتها ونوات الشخصيات الأخرى في إطار هذا العالم السردية الدال. وما يزيد من تأثير هذه الشخصية وتفاعل المتلقي معها هو البنية الدرامية وحالة الصراع التي تعيشها مع الواقع أو القضايا الكبيرة التي تنحصر لها أو تعبر عنها في موقفها من الحياة والوجود والإنسان.



زوربا من شخصية روائية إلى حقيقة

مفيد نجم
كاتب سوري

عندما نتحدث عن كثير من الأعمال الروائية تقفز إلى الذهن فوراً أسماء شخصياتها بوصفها أيقونات دالة عليها، ومن يقوم بالأفعال السردية التي تنظم إيقاع السرد وتطوره فيها. لذلك يصعب على القارئ تحديد علاقته بالرواية بمعزل عن هذه الشخصيات، والدلالة التي ترتبط وجودها بها داخل العالم الروائي، حيث استمدت من خلال صفاتها وأفعالها البشرية قيمتها الأصلية التي منحها الخلود. إن هذه العلاقة الجدلية بين الشخصية والرواية يمكن للقارئ أن يتلمسها عند قراءة أي عمل روائي أو من خلال الأفعال التي تقوم بها هذه الشخصية المتخيلة وتشكل مصدر الحدث ومن يقوده في السرد الحكائي للرواية. لذلك فإن رواية الجريمة والعقاب لا تذكر إلا مقترنة بشخصية بطل الرواية راسكولنيكوف ذات البنية الدرامية المركبة والدالة في أفعالها وصراعاها الذي يمنح أحداث الرواية توترا. كذلك لا تذكر شخصية زوربا حتى يحضر اسم رواية زوربا اليوناني لنيكوس كزانتزاي باعتبارها تكتيفا واختزالا للبحث عن معنى حسي للوجود الإنساني والحياة.

ولا يختلف الأمر بالنسبة لثلاثية نجيب محفوظ التي ارتبطت باسم شخصية بطلها عبدالجواد وأفراد أسرته التي عكست في سلوكها وقيمها تحولات الواقع الاجتماعي والسياسي في منتصف القرن الماضي، وكذلك الحال بالنسبة لشخصية رجب في رواية شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف التي عبرت في حركتها داخل المكان عن العلاقة الضدية بين عالمين متناقضين، عالم الحرية وعالم القمع والاستبداد لشرق المتوسط.

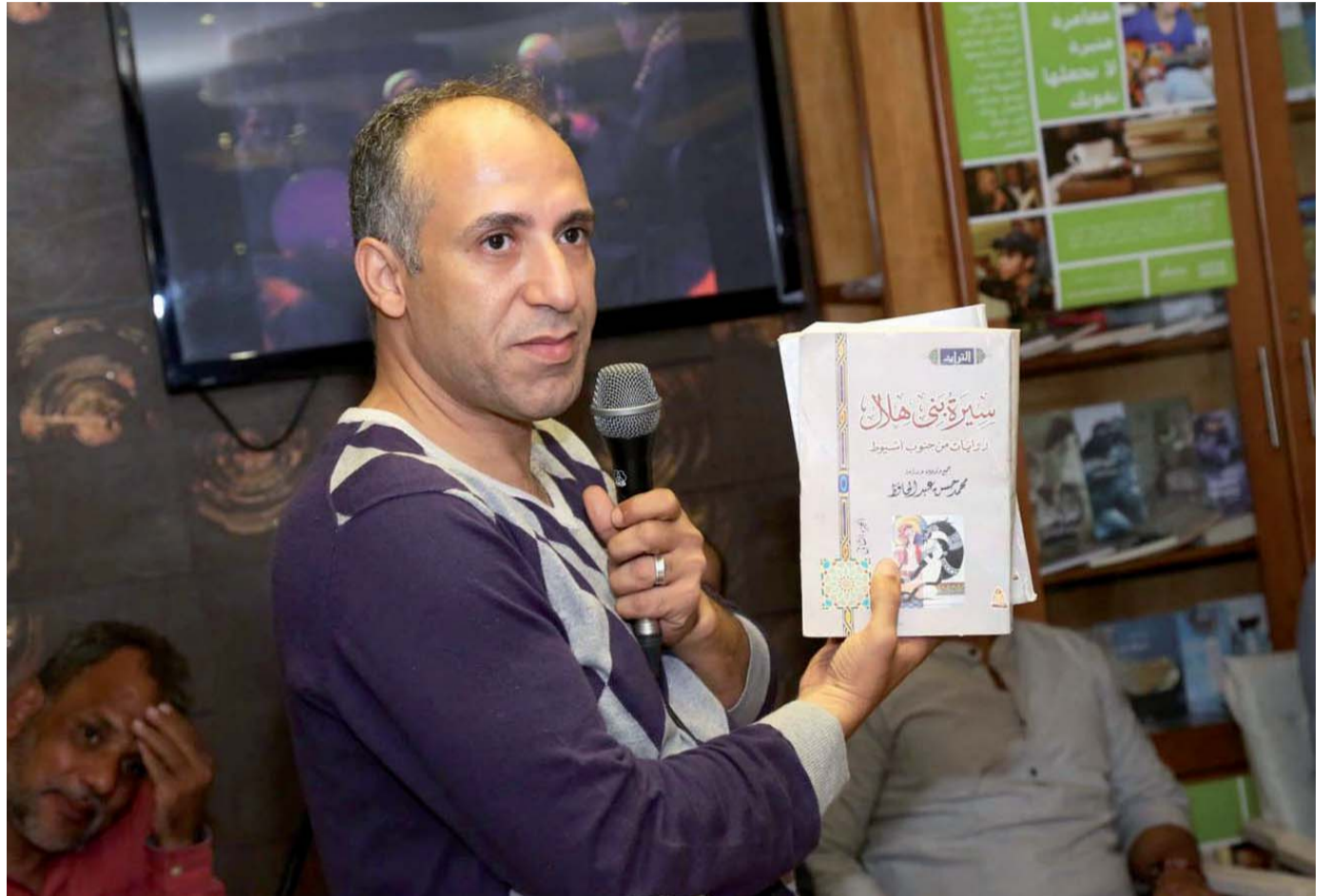
إن الأهمية الخاصة للور الذي تلعبه هذه الشخصية الروائية في العمل الروائي لا تقتصر على واقعيته مهما حاول الكاتب أن يمنحها من الصفات الواقعية لأنها تظل شخصيات خيالية يقوم الكاتب ببنائها لكي يجعلها أكثر تمثيلا للواقع والأفكار والقيم التي يريد التعبير عنها. كما تتجاوز هذه الشخصية في أهميتها الأفكار التي تطرحها وأساسها الذي تمثلها في سلوكها ومواقفها والبنية الدرامية التي تحوز عليها، بوصفها الحامل الأساس لهذا العمل والبؤرة التي تنفرد منها ومعها جميع أحداث الرواية. لذلك فإن الحديث عن هذه الشخصية في العمل الروائي يتجاوز كل ما سبق إذ لا يمكن تناولها بمعزل عن كل عناصر العمل الروائي نظرا إلى العلاقة العضوية التي تربطها بجميع مكونات هذا العمل من سرد ووصف وأحداث وزمان ومكان تدور فيها هذه الأحداث.

هذه الشخصيات الخيالية على الرغم من اختلافها وتنوع أشكال تقديمها ومقاربتها هي في الرواية الواقعية غيرها في الرواية النفسية، إذ تهتم الرواية الواقعية بالواقع الخارجي وعلاقة الشخصية به كما تبدو في مواقفها منه وسلوكها تجاهه، في حين أن الرواية تحاول أن تكشف عن هذه العلاقة كما تجلبي في مرآة العالم النفسي للشخصية، الأمر الذي يجعل تيار الشعور واللاشعور يتدفق في رسم صورة الواقع كما تعكسها هذه المرآة الداخلية لعالم الشخصية النفسي، لكن

ولعلنا نرى أن "معهد الشارقة للتراث" الذي تأسس سنة 2014 يعد ضمن المشروعات والعرب المبرين حيث يساهم في إعداد كوادر من الباحثين الإماراتيين والعرب المبرين على صون تراثهم الثقافي، وعلى القيام بإجراء المسوح الميدانية لحصر التراث الثقافي وحفظه وتوثيقه، وإجراء البحوث والدراسات باستخدام مناهج البحث العلمي. كما افتتح سموه مركز التراث العربي، ويعد مركزا محوريا لمعهد الشارقة للتراث. يعمل على تنفيذ حزمة من البرامج والمهام في مجال جمع عناصر التراث الثقافي العربي، ودراستها، ورقيمها، باحث الأساليب والأدوات، وعلى وفق المعايير الدولية. ويضم مبنى المركز عددا من الأقسام والوحدات العلمية والتقنية.

العرب يعانون فصاما تاريخيا

محمد حسن عبدالحافظ: أن الأوان لتعاد للثقافة الشعبية مكانتها



النخبة جنت على الثقافة الشعبية

حياة الناس، باسم الدين، والحرب على منظومة عاداتهم وتقاليدهم ومعارفهم الموروثة والمتراكمة منذ آلاف السنين، إذ وضعتها في كفة 'الحرام'، على غرار كفة 'التخلف' النخبوية، وكفة 'العييب' الطبقيّة، تقريبا لم يسلم أي شيء في الثقافة الشعبية من هذه الأحكام الجائرة، خاصة الممارسات الشعبية الصوفية، والتصورات والممارسات الاعتقادية حيال الموت: المرثي الشعبية 'العديد'، وأساليب الدفن وزيارة القبور وذكرى الوفاة، والاحتفالات الدينية الشعبية كمواليد الأولياء والقديسين، وأنماط الزي والزينة الشعبية، والأمثال والأغاني والألعاب والموسيقى والرقص والتشكيل.. إلخ.

وحول أسباب بعد التراث الشعبي عن التدريس لطلاب المراحل التعليمية ما قبل الجامعية، يقول عبدالحافظ إن هذه إحدى النتائج لجنايات النخبة في حق الثقافة الوطنية وفي القلب منها الثقافة الشعبية، وأنا أتحدث هنا، وفي سياقات أخرى، عن الحالة المصرية. إننا نجد منذ عقود -ممثلين لها داخل الأجهزة واللجان الرسمية المنوط بها رسم السياسات التعليمية، وكذلك نجد معلمين وأساتذة جامعة يصبون العداء للثقافة الشعبية وفنونها وجماعاتها، وبعضهم متخصصون.

وعن الاهتمام الخاص الذي توليه دول الخليج العربي خاصة الإمارات لتراثها الشعبي المعنوي والمادي، يشير عبدالحافظ إلى أنه في الإمارات على وجه الخصوص هناك توجهات وإرادة سياسية على النظر إلى الثقافة الشعبية بوصفها ركيزة الثقافة الوطنية وقلعتها، فضلا عن عضوية واندماج حكامها وشيوخها مع شعبيها ومجتمعاتها، وكان للطفرة التي نتجت عن اكتشاف النفط أثر في ترسيخ هذا التوجه بصون التراث الثقافي الإماراتي وحمايته بمختلف الوسائل، وتعد الإمارات في هذا الشأن نموذجا عالميا يحتذى به.

ولعلنا نرى أن "معهد الشارقة للتراث" الذي تأسس سنة 2014 يعد ضمن المشروعات والعرب المبرين حيث يساهم في إعداد كوادر من الباحثين الإماراتيين والعرب المبرين على صون تراثهم الثقافي، وعلى القيام بإجراء المسوح الميدانية لحصر التراث الثقافي وحفظه وتوثيقه، وإجراء البحوث والدراسات باستخدام مناهج البحث العلمي. كما افتتح سموه مركز التراث العربي، ويعد مركزا محوريا لمعهد الشارقة للتراث. يعمل على تنفيذ حزمة من البرامج والمهام في مجال جمع عناصر التراث الثقافي العربي، ودراستها، ورقيمها، باحث الأساليب والأدوات، وعلى وفق المعايير الدولية. ويضم مبنى المركز عددا من الأقسام والوحدات العلمية والتقنية.

ويضيف "تعبر الثقافة الشعبية عن درجة ما من الاستمرارية التاريخية لنظام التمثلات الجماعية الوطنية والقومية للعالم، الموروثة عن أزمنة سابقة. ليس معني ذلك أن الوعي الشعبي ظل راكدا أو مغلقا أمام تيارات التحول التاريخي؛ بل يعني أنه وعي ذلك التحول نفسه من منطلق بنيات ذهنية متشككة سلفا بتأثير الخيال الجمعي التاريخي المكتنز بالرموز والمعتقدات الراسخة. إنها ثقافة 'طبيعية'، مطابقة في سيرورتها لتطور المجتمع الأهلي العربي. وعلى العكس من هذا التكوين، تبدو الثقافة العالمية وقد نشأت في سياق تطور مختلف عن تطور بني المجتمع العربي. لقد خرجت من رحم التحول الذي تعرض له البنيان العربي عقب النخل الاستعماري الغربي العسكري والاقتصادي والثقافي منذ مطلع القرن التاسع عشر".

ويتابع الباحث "إذا كانت الدولة الحديثة قد خرجت من رحم الإدارة الاستعمارية بعملية ولادة قيصريّة، ولم تخرج نتيجة تفكك طبيعي للبنى التقليدية، وإذا كان الاقتصاد الرأسمالي هو حاصل تدمير استعماري للبنى الاقتصادية التقليدية العربية، وليس نتيجة تفكك ذاتي لها، فإن الأفكار الحديثة خرجت بدورها إلى الوجود في سياق النجاح الاستعماري في توليد ثقافة جديدة في الفضاء العربي المحتل، وليس ضمن سياق من التطور الطبيعي. لذلك، انحصرت هذه الثقافة في أوساط النخب من كل الاتجاهات، ويعد إنتاجها دوما بما يشبه عملية صياغة جديدة لكيان ثقافي منغلّق، مستقل عن الكيان الثقافي الشعبي، ومواز له في الوقت نفسه".

ويشير عبدالحافظ إلى أن هذه القطيعة بين الثقافة العالمية والثقافة الشعبية تغذي قطيعة نظرية في ميدان التواصل الفكري بين المثقف والجمهور، وينجم عنها تهميش ثقافي مزايد للجمهور من جهة، وانعزال متعاطم للمثقفين من جهة موازية.

صيانة التراث

حول حرب الثقافة الرسمية جنبا إلى جنب مع الدين الرسمي لتجليات المعتدات الدينية والشعبية في محاولة لحوها من خلال اتهامها بالتخلف والجهل والكفر، يلفت عبدالحافظ إلى أن "هذه الأزمنة ناتجة عن أوهام الصقوة مجال كتابة تاريخ كل منهما، حيث يبدو أن التاريخ الوحيد الذي يُحفظ بعناية فائقة في معظم المجتمعات هو تاريخ الثقافة المكتوبة، فيما لم يحظ تاريخ الثقافة الشعبية "أو ما يعرف بالتاريخ الشفهي" باهتمام كبير يليق بمكانته في بناء المجتمع الثقافي.

من المغالطات الكبرى في التاريخ العربي النظر إلى الثقافة الشعبية على أنها تخلف وحصرها في مجرد الفلكلور الساذج، وهنا كان بناء ثقافة بمعزل عن محيطها الشعبي، ما وسد قطيعة كاملة بين النخب المنزلة والجمهور الشعبي. حول واقع التراث والثقافة الشعبية، "العرب" كان لها هذا الحوار مع الباحث في التراث والثقافة الشعبية المصري محمد حسن عبدالحافظ.

باحثين في الثقافة الشعبية ومبدعين شعبيين، لتكتمل أطراف الحوار في هذا الموضوع.

ويرى الباحث أن موضوع التراث تعرض إلى تسطيح ومغالطات كثيرة، نتيجة فقر وعي النخب بفلسفة الإبداع الشعبي وشروط إنتاجه وسياقات أدائه وتداوله، هذا الفقر الذي أدى، منذ زمن بعيد، إلى تعطيل الاتصال بفنون الثقافة الشعبية الوطنية، بل تجريمه أحيانا، لصالح التبعية الذهنية للغرب، بالرغم من أن الرواية الغربية نفسها نشأت على التراث الأدبي الشعبي، على نحو ما تشير إليه مقولة جورج لوكاش "الرواية ملحمة العصر الحديث"، لكن الرواية العربية لم تنشأ بوصفها ملحمة عصرها، رغم امتلاك تاريخ الأدب العربي تراثا وماثورا سرديا شعبيًا عظيم القيمة الجمالية "السيرة الشعبية"، ليلة وليلة، على سبيل المثال، والأمر نفسه أكثر فداحة في الفنون الأخرى.

ويستدرك عبدالحافظ "لكن هناك دوما أعمال إبداعية وجهود علمية كاسرة، على ندرتها، لهذه القادة، بقيمة إبداعات فرنسوا رابليه وبورخيس وفؤاد حداد ومحمد المرزوقي ومصالح الراوي ودرويش الأسيوطي وعبدالستار سليم وسعود شومان وغيرهم".

ويؤكد عبدالحافظ أن نمطه فصاما تاريخيا بين الرسمي والشعبي، وبين الشفهي والكتابي، في الثقافة والأدب والفن والفكر. وفي الحقيقة، ليس ثمة امتياز للثقافة المكتوبة "العالمية" على الثقافة الشعبية "الشفهية" في مضم�ر التعبير عن الذات، فكلاهما يشكل طريقة من طرائق هذا التعبير، إلا في ما بينهما من تفاوت في درجة النظام والتعقيد، حيث تبدو الثقافة المكتوبة أكثر تراكما. غير أن المحنة لا تكمن في هذا الجانب، نعني ليست في وجود فوارق في أنماط التعبير، وفي درجات النظام فيه؛ بل تكمن في مستوى التمثل لدى كل منهما؛ ذلك لأن هناك قدرا من التفاوت في وعي كل من الثقافة المكتوبة "الرسمية أو العالمية" والثقافة الشفهية "الشعبية". يتبدى ذلك بوضوح في مجال كتابة تاريخ كل منهما، حيث يبدو أن التاريخ الوحيد الذي يُحفظ بعناية فائقة في معظم المجتمعات هو تاريخ الثقافة المكتوبة، فيما لم يحظ تاريخ الثقافة الشعبية "أو ما يعرف بالتاريخ الشفهي" باهتمام كبير يليق بمكانته في بناء المجتمع الثقافي.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

بعد الدكتور محمد حسن عبدالحافظ واحدا من العشاق المخلصين للتراث الشعبي العربي عامة والمصري خاصة على اختلاف تجليات أشكال هذا التراث الثقافي والفنية والإبداعية، لم يتفك بالبحث والتحليل والنقد في أطروحات ودراسات وورش عمل بل ذهب ليعايش حضوره في موطنه حيث ارتاد العشرات من الرحلات الميدانية لجمع عناصر التراث الثقافي غير المادي داخل مصر وخارجها.

القطيعة بين الثقافة
العالمية والثقافة الشعبية
تغذي قطيعة نظرية في
ميدان التواصل الفكري
بين المثقف والجمهور

وعلى إثر رحلاته الميدانية وبحوثه قدم عبدالحافظ عددا من الرؤى والأفكار في مؤلفات مهمة منها "سيرة بني هلال روايات من جنوب أسسوط" (جزان)، "مستقبل الحرف التقليدية"، "مدينة الثقافة ومرجعيتها الشعبية"، وغيرها، فضلا عن مشاركته بالنشر في دوريات محلية وإقليمية ودولية.

الثقافة الشعبية

بداية يوضح عبدالحافظ الأسباب التي جعلت التراث الشعبي لا يلقي الاهتمام والرعاية من الكتاب والمثقفين والهياكل الرسمية الثقافية على الرغم من تجلياته وتأثيراته القوية المباشرة على مختلف أشكال الإبداع. يقول "تتعلق هذه القضية باستلهاام الثقافة الشعبية وفنونها في مختلف أجناس الفنون والآداب الحديثة، وهو استلهاام ذو مستويات متفاوتة. فعلى الرغم مما يبدو من تأثير واسع للثقافة الشعبية على مختلف أشكال الإبداع، إلا أن القليل جدا من الإبداع الفردي هو ما يعكس جوهر الثقافة الشعبية. وفي تصوري، فإن نقاش قضايا استلهاام الماثور الشعبي في الأنواع الأدبية والفنية الحديثة يعوزه حضور